

مؤرخ مغربي معاصر

يصف أحداث أوروبا الغربية

خلال سنوات ١٥٨٧ - ١٨٩٦

الدكتور هبيل الكبريم كرم

كلية الآداب - جامعة محمد الخامس الرباط - المغرب

أولى للمؤرخ المغربي أبو فارس عبد العزيز الفشتالي عناية كبرى للأحداث المعاصرة التي عرفت أوروبا الغربية خلال الربع الأخير من القرن السادس عشر، والدرجة يمكن معها القول بأن المعلومات الهامة والتفاصيل الدقيقة التي أثبتتها في مخطوطه القيم (مناهل الصفا) الموجود بجزالة القصر الملكي بالرباط، قل أن نجد لها مثيلاً حتى عند بعض المؤرخين الأوروبيين المعاصرين.

وليس هناك من شك في أن وضعية الفشتالي كوزير للمولى أحمد المنصور السعدي ورئيس كتابته الخاصة ثم كجليس خاص للخليفة، قد مكنته من الاطلاع على الكثير من التطورات والأحداث الداخلية والخارجية. وساعدته على تدوين جانب كبير منها.

وبهنا في هذا البحث أن تكشف الجوانب الهامة من تاريخ أوروبا الغربية في نهاية القرن السادس عشر، التي أولاها المؤرخ الفشتالي عناية كبرى في مخطوطه (الناهل) وذلك :

١ - لنستفيد منها في دراسة هذه الحقبة الخطيرة من تاريخ أوروبا الغربية في مطلع العصر الحديث.

٢ - لنستدل بها على مدى سعة أفق بعض المؤرخين المغاربة المعاصرين الذين دونوا أحداث بلادهم الداخلية وأهم التطورات الخارجية المعاصرة لهم.

٣ - ولنبتل الأذعاء الذي طالما رددته الكثير من الأجانب يا نزال العالم.

الغربي وانسكاشه على نفسه خلال العصور الحديثة وجهله لما يجري من تطورات في داخل البلاد وخارجها .

اشتدت وطأة الحروب الدينية بأوربة الغربية منذ الربع الأخير من القرن السادس عشر : للاشتباكات الدموية التي تمددت واجهاتها وتشمعت أهدافها ، لدرجة يمكن معها القول بأن الكثير من ملوك أوربا وأمرائها قد استغلوا لبسط سيطرتهم أو لخلق نير حكم أجنبي ، أو لتحقيق مطامع وأهداف طالما عملوا لأجلها ، وقد كان ملك أسبانيا فيليب الثاني يعمل جاهداً على إقامة دولة مسيحية واحدة تكون قوام إمبراطورية عالمية ، وكان يتخذ من تأييد البابوية في روما حجة وسنداً للدخول في حروب ضد الدول الأوروبية بدعوى اعتناق بعضها المذهب البروتستانتي الذي اعتبرته الكنيسة الكاثوليكية بدعة يجب القضاء عليها مع أن هذه الدول قد خرجت أو سمت إلى الخروج ضد فيليب الثاني والوقوف في وجه أطماعه التوسعية وذلك للتطورات التي عرفتها أوضاعها وظروفها كدول نامية تسعى لتحقيق كيائها السياسي ووحدتها الوطنية ، ومن هذا القبيل بريطانيا وفرنسا وهولندا التي كانت تربطها بالمغرب روابط قوية وخاصة في الميدان التجاري . وقد أخذت هذه العلاقات تتحول إلى اتصالات سياسية بسبب شعور هذه الدول بالخطر الأسباني المتزايد . أو بمباراة أوضح ، فإن الخطر الأسباني قد تقارب بين دول المعسكر البروتستانتي بأوربا وبين المغرب الذي كان يتخوف من قيام الأسبان بهجوم عسكري ، خاصة وأن للأسبان قواعد احتلال عديدة منبثة على شواطئ المغرب الشمالية .

ومنذ انهزام البرتغال في معركة وادي المخازن (الاثنين ٤ غشت ١٥٧٨) ، اشتدت رغبة فيليب الثاني ملك أسبانيا في ضم العرش البرتغالي وتوحيد شبه جزيرة ايبيريا ، وقد تدل في قواعد الاحتلال البرتغالي في المغرب (سبتة ، طنجة ، أصيلا ، مازكان) بدعوى حمايتها من الهجومات المغربية ، وأخذ يستغل كل الفرص والظروف للإطاحة بالحكومة البرتغالية التي لم تكن الأيام تزيد أوضاعها الداخلية إلا تدهوراً واضطراباً ، وخاصة بعد وفاة الكاردينال (هنري) في شهر فبراير سنة ١٥٨٠ وعدم توصل الهيئة الخامسة التي ألفت في لشبونة لتسيير الأمور ، ريثما ييث مجلس (الكورتيز) البرتغالي فيمن سيتولى العرش لتعدد المطالبين وتشمع الاتجاهات واختلافها .

ومن أبرز المطالبين (دون أنطونيو) عم الملك القاتل (دون سباستيان) ،
الذى شارك بدوره فى معركة وادى المخازن ونجا من الأسر بأعجوبة ، والملك
الأسباني فيليب الثانى الذى لم يتردد فى استخدام القوة لضم العرش البرتغالى
والامبراطورية البرتغالية المترامية الأطراف .

وعندما اخترقت القوات الأسبانية الحدود البرتغالية يوم ١٢ يونيه ١٥٨٠
سارع مجلس (الكورتيز) البرتغالى إلى ييعة (دون أنطونيو) يوم ١٩ يونيه ،
وتصدت القوات البرتغالية إلى مقاومة الأسبان ولكن بدون جدوى ، إذ انهزم
(دون أنطونيو) فى معركة (المنظرا) وجرح ثم فر إلى شمالى البلاد ومنها إلى
جزر آصور التى وصلها يوم ٢٣ أكتوبر من نفس السنة .

أما فيليب الثانى فقد استقر فى مدينة بطليوس إلى أن جاءه خبر الفتح وتصدق
مجلس (الكورتيز) على وحدة المرشحين البرتغالى والإسباني خلال جلسته للمنفعة
يوم ١٥ أبريل ١٥٨١ ، ومن مدينة بطليوس انتقل إلى لشبونة التى دخلها دخول
الفاتحين يوم ١٣ يوليو فى حين أن (دون أنطونيو) قد أعلن معارضته لذلك ،
وجعل من جزر آصور مقراً للثورة ضد الأسبانيين . وعندما أرسل الأسبان قوات
بحرية ضد آصور سنة ١٥٨٣ انتقل (دون أنطونيو) إلى فرنسا عند ملكها (هنرى
الثالث) الذى أعرب عن تأييده للأمير البرتغالى ومده بمختلف المساعدات ، غير
أن أحداث فرنسا الداخلية ، وتجدد الحروب الدينية بها سبب محاولات الحزب
الكاثوليكي الفرنسى حرمان الأمير (هنرى نافار) البروتستانتي من عرش فرنسا
بعد أن أصبح للرشع الوحيد له إثر وفاة الأمير (فرانسوا) أخى الملك (هنرى
الثالث) سنة ١٥٨٤ ، وتدخل ملك أسبانيا لتأييد الجانب الكاثوليكي من جهة
أخرى ، جعل (دون أنطونيو) ينتقل إلى بلاط الملكة الانجليزية (إليزابيث)
بلندن ، التى آوته وشملة بكل عطف وتأييد .

وبانتقال (دون أنطونيو) إلى لندن ازدادت حدة النزاع بين أسبانيا وانجلترا
وتباينت شدة الخلاف بين المسكرين المسيحيين الأوربيين الكاثوليكى بزعامة فيليب
الثانى والبروتستانتي بزعامة الملكة إليزابيث .

والجدبر بالملاحظة هو أن كلا من المسكرين قد سعى جاهداً إلى كسب جانب

الخليفة السعدي المولى أحمد المنصور لما يتمتع به المغرب من استراتيجية هامة . وللدور العسكري الذي يمكن أن يقوم به الغاربة عند قيام حروب بين دول المسكرين الكاثوليك والبروتستانت ، وقد التزم المغرب جانب الحيام بين الجانبين المتنازعين . إلى أن حصلت معركة الأرمادا التي انتهت بانزلام الأسطول الأسباني (١٠ أغسطس سنة ١٥٨٨) إذ ازادت الصلات بين الملكة الإنجليزية (إليزابيث) والمولى أحمد المنصور الذي أعلن تأييده للأمير البرتغالي (دون أنطونيو) ، واعترفه بطلابه المشروعة في العرش البرتغالي .

وبعد الاتصالات السرية التي جرت بين مرا كاش ولندن تم الاتفاق على أن ينقل الأمير (دون كريستوف) بن (دون أنطونيو) إلى المغرب كرهينة في مرا كاش مقابل المساعدة المادية والقروض المالية التي وعد المنصور بتقديمها ، إلا أن المولى أحمد استغل وجود الأمير البرتغالي بين يديه للضغط على الملك الأسباني فيليب الثاني الذي تنازل له دون قتال عن مدينة أصيلا إحدى قواعد الاحتلال الأسباني بالمغرب ، وللاطلاق نحو غربي أفريقيا لفتح السودان ، وتأسيس إمبراطورية مترامية الأطراف .

لقد أثرت نتائج معركة الأرمادا على الأحداث التي عرفتها أوربة الغربية فعلاوة على الثورات التي ازدادت ضد الأسبان لقدم بعض الكانة التي كانت لهم كأعظم دولة في العالم ، أخذ خصومهم الذين كانوا يقفون منهم على حذر لسطوتهم وقوتهم ، يصارحونهم العداء ، ويحاولون استغلال هذه الفرصة لرفع نيرهم وإبعاد خطرهم ، أو للانتقام منهم .

وهكذا اندفع الانجليز في حروبهم ضد الأسبان وتعددت واجهات القتال بين المسكرين المسيحيين ، وسعى الحلف البروتستانتي بوجه خاص إلى احتلال أهم المدن البرتغالية الساحلية لتتويع (دون أنطونيو) بها ولقطع الطرق التجارية البحرية التي تصل بين أسبانيا من جهة والعالم الجديد والشرق الأقصى من جهة أخرى .

وقد نجح الانجليز أخيرا سنة ١٥٨٦ في احتلال مدينة قادش إحدى المراكز

الاتصالية الأمة بشبه الجزيرة الإيبيرية ونادوا بالأمير « دون كريستوف » أميراً عليها بعد وفاة والده (دون أنطونيو) بفرنسا سنة ١٥٩٥ .

* * *

وجميع هذه التطورات والوقائع قد دونها المؤرخ الفشتالي في مخطوطه « مناهل الصفا » ، وإن لم يكن ذلك بصفة منتظمة لأن الفشتالي كان يدون أخباره بشكل كرايس ومذكرات ولأن بعض هذه الأحداث جاءت بصفة استطرادية أو في معرض حديثه عن الخليفة المنصور وأخبار دولته بالمغرب .

وقد قمت بتنظيم المعلومات التي دونها الفشتالي عن أوروبا الغربية خلال الفترة بين ١٥٧٨ - ١٥٩٦ وترتيبها ترتيباً زمنياً لثم الفائدة المرجوة ودون أن يس ذلك بالأصل وبشروط الأمانة التاريخية .

١ — أوضاع البرتغال بعد معركة وادي المخازن والصراع بين فيليب الثاني ملك أسبانيا و (دون أنطونيو) المطالب بالعرش البرتغالي :

« فأما ولهم طاغية برتقال دون أنطون فقد كان من خبره أن أمير المؤمنين المنصور لما وقع بمجموع الشرك يوم النهر بوادي المخازن حسبما سبق وجدلت سيوفه بستان برتقال واستولى المسلمون على من تحطاه الأجل من سواد المشركين كان ممن أسر يومئذ من طواغيت الشرك دون أنطون عم بستان طاغية برتقال الهالك أسره بعض زعانقة البربر من مطوعة بلاد الهبط واستألمهم بالمال وقد جهلوه فأوصلوه إلى أصيلا وعبر البحر إلى الاشبونة قاعدة برتقال ، وكان القائم بها يومئذ يأمر برتقال من بعد بستان عمه فرديال ثم هلك لحولين من ولايته فقام بالأمر من بعده دون أنطون هذا ثم طمع طاغية قشتالة أن يغلبه على مملكة بها وأعانه على انتهاز الفرصة فيه ما قدمنا من تلاشي أمر برتقال باستيصال هزاتهم وهلاك جموعهم بوادي المخازن الكائن للمسلمين عليهم على يد أمير المؤمنين فزحف إليهم بمساكر قشتالة وكانت أكثرهم النصرانية جمعا فخرج دون أنطون لدفاعه فيمن يق من جموع برتقال فالتقى الجمعان بأسلحة الاشبونة فكانت الدائرة على دون أنطون ونجى إلى مملكة

بلاد نكلطيرة ابذيل فنزل منها خير نزل فأوته وشمرت لفصرتة » (المناهل ص ١١٢) .

٢ — وصف للمارك والحروب التي جرت بين الأسبان والإنجليز :

« فأظلم الجو بالفتن على طاغية قشتالة وتمالككت في مشاقته ملوك الأمم النصرانية فكان أشدهم تكالبا عليه وأكثرهم جراءة على الإجلاب على ممالكه والتضييق عليه والأخذ بمخنقه إيزيل سلطنة ممالك بلاد نكلطير ... ثم رام مناهضتها واحتفل في تجهيز الأسطول لمنازلتها فأوقعت به أساطيلها وارادت على أعقابها مغلولا » (المناهل ص ١٣٥) .

٣ — وصف معركة الأرمادا : [من رسالة المنصور إلى أهل سوس - رسائل سعدية . ص ١٥٠] .

« ذلكم أن عدو الدين الكافر جدد الله حزنه وقوض ركنه وهو طاغية قشتالة الذي هو اليوم ضد الإسلام وعميد الشرك الذي يشرع إليه اللهدم والحسام كان من أمره مع سلطنة بلاد نكلطيرة التي قبض الله منها عدواً من جنسه وضداً شغله عن نفسه بسبب عداوة نشأت عن نزوعها هي وقومها عن ديار النصارى ، وشرعهم والخروج عن ملتهم فكانت لذلك تغزى الطاغية منذ سنين بأسطولها في عقر داره وتستأصل المرة بعد المرة بسيوفها جماهر حماه وأنصاره وتقيم كل يوم في أرضه مآثم ، وتهجم على أساطيله مع البحر غربانها هجوم الليل العاتم حتى إذا استعسرى داؤها العضال وعضته من حروبها الأسنة والنصال سولت له نفسه تجهيز الحركة إلى أقطارها ومنازلتها بجموعه في عقر دارها إظهاراً لقوته وإيداناً من الله باستحصاده شوكته فشمز للأهبة والاستعداد واستنفذ في الاحتفال الطارف والتلاد حتى تجمعت له من الأساطيل عمارة حافلة مكثت في جميعها أربعة أعوام تابعاً استفرغ فيها غاية مقدوره وجهده واستعمل فيها كل طاقته وجده وعندما كملت أجراها إلى البحر وشعنوا بأمره لا تحصى من جموع الشرك ، وأحزاب الكفر بحيث لم يبق أحد من أحزابه () فافوقه بسائر أقطاره ، وبلاده وقوضت إلى بلاد نكلطيرة تخوض نحوها الأمواج وتبتغى إليها السمو والعراج حتى إذا دثوا منها وقد أخذت أساطيلها لحربهم الأهبة والاستعداد وقعدت لهم بمنهى جزيرتها وحدود أرضها بالمضاد أرسل

الله على أساطيل الطاغية من عنده ريمحاً صرصراً أخمتمهم في بلاد العدو على غير نظام ونكست لهم الريات والأعلام فاغتنمت منهم نكلطيرة الفرصة فابتدروا انتهازها وهجم أسطولهم على تلك المهارة القوية فردوا على صدورهم أعجازها وأقبل تيار الهلكة على جموع قشتالة كافة واستأصل الله سبحانه لهم الشأفة فلم ينج من الفرق سوى من استأصله السيف وعاجله بحمد الله تعالى السيف ولا خلو من الورطة في تلك الجموع الكفرية ولله المنة على كثرتها وأربائها على الرمل والحصى في عددها وعدتها إلابطان مدينة لا غير وهو قائد تلك الجموع السكافرة والعصابة الرائحة بالصفقة الحاسرة أفلت وحده من شرك الردى جريماً ، وكان له الموت لو وجده شافياً من تجرع تلك العصاة ومريماً » .

٤ — إيليزابيث ومساعدتها لدى المنصور لتأييد (دون أنطونيو) ضد الأسبان .

« ثم نظر في أمره فردا أن جبر صدعهم وبناء ما تهدم من ملكهم لا يتأتى إلا على يد أمير المؤمنين الذى فى هلاكه ضرهم ونفعهم وجبرهم وصدعهم وأنه لا قدرة على تشييد ركنهم إلا نقضه بمعاول سيوفه الأمامية وأسنته اللهدمية فاستخدم له ومد إليه يد التأميل من وراء البحر ، وأوفد عليه ابنه من بلاد لنكلطير صريحاً وضارعاً فنزل بأسنى قاعدة البحر ، وبلغ إلى أمير المؤمنين على مكناسة من طريقه لفاس خبر وصوله غرة ربيع النبوى [فأتى ربيع الأول عام ٥٩٩٧ هـ . الموافق منتصف يناير سنة ١٥٨٩] فسرّح إلى ابنه المولى الأمير أبى فارس بالحصرة يأمره بإرسال كبير الموالى المملوكى ببابه القائد محمود لصحابه فوصل به وأنزل به سهرنج المنارة من بسانين الخلافة بساحة الحصرة ، وأقيم له هنالك من رسوم الكرامة ما يليق بعظماء القوم أمثاله » (المناهل ص ١١٣) .

٥ — للمولى أحمد المنصور وموقفه من الحروب الأسبانية — الانجليزية .

« كان أشدهم تكالباً عليه وأكثرهم جرأة على الاجلاب على ممالكه والنضيق عليه والأخذ بمخنقه إيزبيل سلطنة ممالك بلاد نكلطيرة لإغراء مولانا أمير المؤمنين بإهاها عنأوائته وهخذ عزائهم على عداوته ومظاهرتها على مقابلته بما أمدها به من النحاس لتفريغ مدافع النار وإطلاق ملح البارود لها بالشراء من ممالكه الشريفة

وإمدادها بالمداد التي أعوزتها ببلادها فناصرها أيده الله في وجه عدو الدين وقبض له منها. أيده الله بمقتضى حزمه ، وواسع تدبيره ، وشده احتياطه شاغلاً يشغله تفرغاً واستجهاً إلى ما كان أيده الله بحرف إليه وجه عزائم الماضية من تجهيز العساكر إلى بلاد السودان التي فتحها ، ومملك أرضها فتم له أيده الله في ذلك تدبيره وكل في نكابة عدو الدين مراده وقصده واعتزت صاحبة بلاد نكلطير بمظاهرتة وطاوعته على ما أغراها به وتوكلت على منساة الإسناد إلى على جنابه والاعتضاد بعظيم سلطانه والاستمداد من شريف إيلاته وضخامة ممالكه وقاومت بذلك الطاغية على ضيق خططها فشمرت لمشاقته ومضايقته فنازلت أولاً بمساكرها الأشبونة قاعدة بلاد برتقال من ممالكه » (المناهل ص ١٣٥) .

٦ - تطور الصراع الإنجليزي — الأساني بعد الأرمادا :

« فازدادت بذلك جراءة عليه وبالت في الاحتفال له فلأبت عليه البحر أساطيلها وجرت عليه هزائم وأتيح لها عليه الظهور ، وأغلقت في مضايقته حتى هجمت أساطيلها على أسطولها عرسى فالس من سواحله فنالت منه سبياً ، وتغريقاً وملسكت عليه البحر أجمع فكانت أساطيلها تقطع عنه منافع الهند ، ومجاوية ، وعطلت على بلاده مرافق البحر والتاجر وضاق منها مخنقه إلى اليوم » (المناهل . ص ١٣٥) .

٧ - فيليب الثاني ملك الأسبان والحروب الدينية بفرنسا :

« ذلك أن ملك الأفرنج كان في القديم من أضخم الدول وأفخم الممالك ، وأوسع الأيلات خطبة وأعمالاً ثم رجع القهقرى شيئاً فشيئاً حتى ضاق نطاقه ، وتوزعت ممالكه فغلب على بعضها طاغية قشتالة عند ركود ربح الدولة الأفرنجية ، وتقاصر قدرتها بالضعف العارض للدول عند هرمها ، ووافق ذلك ما كان من تحويل جمهور أهل تلك الممالك إلى الدين الحادث في الأمم النصرانية المعروف بلا تريان فكان ذلك أعون على خذلان ملك الإفرنج لإطباق رعاياه على الانتقال لهذا الدين فصمم هو على دينه الأول ، وكرام رعاياه يسوقهم بمضى القفر إلى دينه فاستمضى عليه شأنهم فجاء في عنهم وتوكلهم ودينهم مدياجة وهوادة وليس له مع ذلك وارث يرث مملكته ذكرآ والبنيات لا يرثن الملك في دينهم كما يرثنه عند غيرهم من

النصارى فلم يكن أقرب إليه وأحق بأثره من ابن عم له سلطان أهل نباره الوارث
لملكهم من طريق الخوالة ، وكانوا على دين لاتريان فطمع لذلك طاغية قشتالة
في ملك الإفرنج لانهقطاع وارهه وتحول دين أهله فاعتمل في التضريب بين سلطانهم
وقومه وأغرى بعض أهل بارس قاعدة ملكهم بالفتك به فاستحكمت النفرة بينهم
وبين سلطانهم وتوجس في نفسه خيفة من ذلك فانتقل عن بارس إلى روان إحدى
ممالكه ووصل يده بيد ابن عمه صاحب نباره ثم عاود بارس منازلها فهدس إليه
أولياء طاغية قشتالة من أهلها بالغدر على يد قسيس فطمعته ثم غالية السلطان
المطمعون على سلاحه فقتله به في الحين ثم هلك هو من طمعه فصار بسبب ذلك
لصاحب قشتالة من مملكة أفرانصة برطانية ويرجوم والبعض من نباره ، وصارت
باريس بعد خروج صاحب أفرانصة عنها ليحجبه ومعناها جماعة تدير الأمر وصاحب
قشتالة مهمهم في تلك الليجة كأحد تلك الجماعة ، وكان يعدم يجيشه الذي بأفلائطس
ثم ملك صاحب نبارة ابن عم السلطان المالك بارس ، واتصل أهل أفرانصة ،
وانضم بعض ققويت شوكتهم واستفحل أمرهم ، وتماظمت صولتهم فسمت همهم إلى
استرجاع ممالكهم ومعاودة سلطانهم وشمروا لمغالبة طاغية قشتالة على ما يليهم من
ممالكه فصمدت عساكرهم إلى بارس فنازلوها وأجلبوا على أعماله وممالكه وزاحموه
بالمناكب ولاحت لهم بوارق الظهور عليه فتهالكوا لهذا المهدي مضايقته ووقفوا له
بمدارج النفس فضاقت منهم مخنقه وتكالبوا عليه مع صاحب بلاد نكطيرة كل من جهته»
(الناهل ص ١٣٦) .

٨ - ثورة الأراضى المنخفضة ضد الأسبان :

« ثم عزروا بثالث الأثافي من أهل فلنضس ، وهم أهل مملكة الطاغية القديعة
التي منها أصله وقد انتصوا عليه وصاروا عليه إلباً مع الإفرنج وأهل بلاد نكطيرة
فأضرموا عليه جهات ممالكه ناراً وفتنة وصلى بنار حروبهم برآ وبحراً فظهروا
عليه ظهوراً أطمعهم في انتشار سلكه ومقاسمة ملكه » (الناهل . ص ١٣٦) .

٩ - احتلال الأنكيز لمدينة قادس وأهمية ذلك سياسياً واقتصادياً :

« وفي هذا التاريخ (يقصد القسطنطيني سنة ١٥٩٦) صمد إليه أسطول سلطنة بلاد
نكطيرة في مائتي مركب ونيف مشحونة بجيوش وافرة وعساكر النار على احتفال

عظيم يقدمها دون كشتوبان الذي كان أوفده على أمير المؤمنين والده دون أنطون سلطان برتقال النازع إلى بلاد نكلطيرة عند تغلب طاغية قشتالة على الاشبونة حسبما قدمنا وطارت لدوى زحفها طيارات الطاغية وتساعدت من الدعر إلى أوكارها مشرقة ومغربة حذاراً من انقراض النع الكواسر عليها من مراكب أهل نكلطيرة المائلة لعظمها وجفائها على شبح الموج كالمعاقل الحصينة فأجابت على مدينة قادس من مدن سواحل قشتالة ، وهي الباب الأعظم إلى ممالك الطاغية ومتون النظائر الثقيلة من بلاده ، ومحط رجال الأموال الطائلة من أرضه ومرسى أسطوله وفرصة المجاز إلى ممالكه والعقيلة المائلة على كرسى من بحر الزقاق آفة وعزة وتحصيناً فافتضى عذرتها أسطول الانكليز ، واستباحوا حماها وكانت أغربة الطاغية الأندلسية وأسطوله () مسفر الهند جاعة عليها وحماية دونها فأوجف عليها أسطول الانكليز ولم يكن لها من قبل مدافعة فأوقع بها ، وكانت فيما زعموا خمس مراكب للطاغية مشحونة بالأموال يقال فيها من السلع النافعة بأرض الهند النامية الأربع يساوى المئين من الآلاف فأتيج للانكليز الاستيلاء عليها والظفر بها واكتسحوا الأساطيل ثم أضرموا أعوادها ناراً فأنى عليها التدمير تغريقاً وتحريقاً ثم اقتحموا المدينة عنوة واستولوا عليها بالسيف غلباً وقهراً فاستباحوها وأطلقوا أيدي العيث فيها فحصلوا من أموالها الطائلة وذخائرها المستبجرة وتجاثرها الثقيلة على ما لا يضبطه قلم حاسب ولاذ التجار من أهلها وأكابرها وحاميتها بقصبتها () العساكر ونصبوا عليها مدافع النار وشاهدوا الموت الأحمر فألقوا باليد واستامنوا وطلبوا الإبقاء على مال بداره فداء يقال إنه مائة وأربعون ألف دقة ، ويقال مائتان ، وبعثوا إلى قومهم بأشبيلية فأعطوها عن يد فأخرج عنهم عساكر الإنكليز فخرجوا متسايلين إلى أرضهم ناجين بأنفسهم من بين الناب والظفر ومغتتمين الإبقاء عليهم واجتمعت على المدينة العساكر وسائر عمارة الأسطول وتهاكوا في تخريبها ، وأضرموا بيوتها ناراً فأصرعوها إلى الأرض وألصقوا مبانيها وقصورها بالرغام فأصبحت أطلالا دراسة كان تغنى بالأمسى ، وأقصوا عليها ستة عشر يوماً منادين هل من مبارز فأعظام الطاغية الأذن الصماء وقد عظمت فيه النكاية وحلت به المصيبة وقد تصاعد أسطول الانكليز لهذا العهد من بعد تخريب قادس مع بحر الزقاق للعيث في سواحل الطاغية وتدمير أرضه والإجلاب على ممالكه والتضييق عليه والمبالغة

في نسكايته وهو متطاحن لصولتهم ومستكين لا ينيس له عرق بحركة ولا يحتاج منه خافية ولا قادمة لنهوض ولا مدافعة وألبسته هذه المرة الشنماء للذل والصغار وجللته الهوان عند الملوك أضداده فأطعمتهم بيه وفغروا أفواههم من كل جانب إلى التهامه مكن الله منه بنيانته وعزته حزب الإسلام وجعل ملكه نهية سيوف مولانا الإمام « (الناهل . ص ٤٣٧) » .

* * *

مصادر البحث :

- ١ - مناهل الصفا . عبد العزيز الفشتالي . مخطوط بخزانة القصر الملكي بالرباط رقم ٢٧٤ .
- ٢ - عصر المولى أحمد المنصور الذهبي . أطروحة الدكتوراه للدكتور عبد الكريم كريم .